آرا ء الإمام ابن كثير في عصمة الأنبياء

إعداد الباحث

محمد على أحمد قنديل

بحث مقدم لمجلة كلية البنات جامعة عين شمس

والذي يعد لمناقشة رسالة الدكتوراه المقدمة لنيل الدرجة

بكلية البنات جامعة عين شمس

مقدمة

يدرس هذا البحث مسألة عقائدية وهي عصمة الأنبياء من خلال كتاب من أشهر كتب التفسير المأثور وهو تفسير القرآن العظيم لابن كثير مقارنة بما جاء في تفاسير أخرى مثل تفسير الطبري ، وتفسير الرازي ، وتفسير الزمخشري ، وغيرهم .

أسباب اختيار هذا الموضوع

1 ــ بحث مسألة من مسائل العقيدة في أحد التفاسير المأثورة يبين عقيدة السلف الصحيحة من خلال الأحاديث النبوية والآثار المروية عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

2 ــ الوقوف على تفسير ابن كثير في هذه المسألة يظهر مدى سلفيته وإتباعه لعقيدة السلف ، وهو من أهم علماء التفسير بالمأثور

3ــ إظهار آراء المفسرين المتباينة حول هذه المسألة يظهر توجهات هؤلاء المفسرين العقائدية .

خطة الدراسة :

جاء هذا البحث في مقدمة وثلاث مطالب وخاتمة بعدها أدرجت قائمة المصادر والمراجع

المقدمة : وفيها الحديث عن أسباب اختيار الموضوع وخطة الدراسة .

المطلب الأول : مناقب الإمام ابن كثير .

المطلب الثاني : العصمة .

المطلب الثالث : آراء ابن كثير في عصمة الأنبياء .

الخاتمة .

قائمة المصادر والمراجع .

المطلب الأول : مناقب الإمام ابن كثير :

ـــ نسبه :

هو : " الإمام المحدث الحافظ ذو الفضائل عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء ابن كثير القيسي البصروي. " [17]

ـــ مولده ، و نشأته ، وتعلمه :

ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير بمجدل قرية من مدينة البصرة في العراق ومات أبوه سنة 703 هـــ . [18] " نشأ بدمشق حيث قدمها وهو ابن سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه ، وحفظ التنبيه وعرضه وهو ابن سبع عشرة سنة ، وحفظ مختصر ابن الحاجب وتفقه بالبرهان الفزاري [19] ، وقرأ في الأصول على الأصبهاني [20]وألف في صغره أحكام التنبيه ،وكان كثير الاستحضار قليل النسيان جيد الفهم يشارك في العربية وينظم نظما وسطا . قيل عنه : الإمام المحدث المفتي البارع ثم وصف بحفظ المتون وكثرة الاستحضار ، وسمع من ابن الشحنة وابن الزراد وإسحاق الآمدي وابن عساكر والمزي وتزوج بابنته وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وابن الرضي وطائفة وأجاز له من مصر الدبوسي والواني والختني وغيرهم ، وأخذ عن الشيخ تقي الدين بن تيمية فأكثر . " [21] ويظهر من ذلك كثرة شيوخ ابن كثير مما يدل على كثرة تلقيه للعلم . وحفظه للمتون وكثرة استحضاره يدل على تفوقه العلمي . وهو ما شهد له به أهل عصره .

---

[1]) طبقات الحفاظ للسيوطي ص534 .

[2]) انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ، دار الجيل بيروت لبنان ط 1414 هـــ 1993 مـــ ج1/ 374 .

[3]) هو : إبراهيم بن سليمان بن سالم البرهان الفزاري ، وصف بالخير . مات قبل الثمانين وسبعمائة ، أو بعدها .

انظر ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ـــ لبنان ج1/ 53 .

[4]) هو : محمود بن عبد الرحمن أبي القاسم ابن أحمد بن محمد، أبو الثناء، شمس الدين الاصفهاني، أو الاصبهاني: مفسر، كان عالما بالعقليات.ولد وتعلم في أصبهان. ورحل إلى دمشق فأكرمه أهلها، وأعجب به ابن تيمية. وانتقل إلى القاهرة وبقي بها إلى أن مات فيها مصابا بالطاعون سنة سبعمائة وتسة وأربعون . له كتب في التفسيرل ، وأصول الفقه .

انظر ترجمته في : الأعلام للزركلي ج7/ 176 .

[5]) انظر الدرر الكامنة مرجع سابق ج1/ 374، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج8/ 397 ، 398 .

ـ علمه والشهود له بذلك ومؤلفاته :

هو : إمام روى التسبيح والتهليل وزعيم أرباب التأويل سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى ، وحدث وأفاد وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد واشتهر بالضبط والتحرير وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. فألف في التفسير تفسير القرآن العظيم ، وألف في التاريخ كتابه المشهور البداية والنهاية ، وفي الحديث تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب ، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه ، ورتب مسند أحمد على الحروف وضم إليه زوائد الطبراني وأبي يعلى ، وله مسند الشيخين وعلوم الحديث وطبقات الشافعية ، واختصر تهذيب الكمال وأضاف إليه ما تأخر في الميزان سماه التكميل وغير ذلك.[22] ويظهر من هذا كثرة مؤلفات ابن كثير والحقيقة أن هناك ظاهرة في مؤلفات ابن كثير تدل على تدفقه العلمي وغزارته فإنك إذا طالعت مؤلفاته تجدها مشحونة بذكر الأحاديث ، وكذا الآراء الفقهية ففي البداية والنهاية أحاديث وآثار لا حصر لها مع أنه كتاب تاريخ ، وهذه مزية يتميز بها كتابه هذا ؛ لأنه يعد من المراجع الهامة في التاريخ الإسلامي المشفع بالأدلة من السنة وآثار الصحابة والتابعين ، وكذا تجد في تفسيره إدراجا لمسائل فقهية كثيرة بجانب شحن التفسير بأحاديث جمة ؛ وذلك لأنه تفسير بالمأثور . والمسائل الفقهية التي تخللت تفسيره تبين أنه فقيه عالم بالفقه . ولذا قيل عنه: هو الإمام المفتي المحدث البارع ثقة متفنن محدث متقن ، كان كثير الاستحضار وسارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع به الناس بعد وفاته . وامتاز ابن كثير بكثرة تلاميذه ومنهم ابن حجي[23] الذي قال عنه : أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه [24]

---

[1]) انظر طبقات الحفاظ للسيوطي ص534 ، وشذرات الذهب ج8/ 398 .

[2]) هو : أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد السعدي الحسباني الاصل، الدمشقي . حافظ مؤرخ، من أهل دمشق، ولد ومات فيها. ولد في ليلة الأحد رابع المحرم سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بظاهر دمشق ونشأ فحفظ القرآن والتنبيه وتفقه بأبيه ولازمه . انتهت إليه مشيخة الشيوخ في البلاد الشامية. ويلقب بمؤرخ الإسلام. صنف كتبا جليلة، منها " الدارس من أخبار المدارس" احترق غالبه في وقعة التتر، و " معجم " في أسماء شيوخه. توفي سنة ست عشرة وثمانمائة من الهجرة .

انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي ج1/ 270 : 272 .

[3]) انظر الدرر الكامنة لابن حجر ج1/ 374 ، وشذرات الذهب ج8/399 .

ـ وفاته :

توفي في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة وكان قد أضر في أواخر عمره.ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية [25] هكذا ينتهي الحديث عن ابن كثير حيث تم المرور بحياته مر الكرام .

المطلب الثاني : العصمة

ـ العصمة في اللغة :

جاء في لسان العرب : " العِصْمة في كلام العرب المَنْعُ وعِصْمةُ الله عَبْدَه أن يَعْصِمَه مما يُوبِقُه عَصَمه يَعْصِمُه عَصْماً منَعَه ووقَاه وفي التنزيل " لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ " [26] أي : لا مَعْصومَ إلا المَرْحومُ " [27] ومن هذا فالعصمة في اللغة بمعنى : المنـــع ، وعـــصمة الله أنبياءه منعه ــ سبحانه ــ لهم من الوقوع في الزلل ، أو اقتراف المعاصي .

ـ العصمة في الاصطلاح :

والعصمة في اصطلاح المتكلمين هي : عدم وقوع الأنبياء في الذنوب والمعاصي ، فلا يخلـــق الله في الأنبياء ذنبا [28] وقال المعتزلة : هي لطف الله بالأنبياء بمنعهم من الوقوع في الكبائر.[29]

ـ آراء علماء الكلام في عصمة الأنبياء :

اتفق ممثلو السلف ، والأشعرية [30]من أهل السنة ، والمعتزلة[31] على وجوب عصمة الأنبياء عن الكبائر سواء قبل البعثة ، أو بعدها ذلك ؛ لأنه ليس من اللائق للنبي الوقوع في الكبيرة مطلقـــا وهو قدوة للعوام والخواص من الناس

---

[4]) انظر الدرر الكامنة ج1/ 374 ، وطبقات الحفاظ ص534 ، وشذرات الذهب ج8/ 399 . وسوف يأتي ذكر ترجمة لابن تيمية ص53 .

[1]) سورة هود من الآية (43) .

[2]) لسان العرب لابن منظور ج24 / 2976 (عصم) باب الميم ، فصل العين ، وما ثالثهما الصاد .

[3]) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص

[4]) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 529 .

[30]) الأشعرية : هم المنسوبون إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، وقد مر الإمام بثلاثة أطوار في حياته الاعتقادية ، كان من المنتمين إلى المعتزلة ، ثم هداه الله فابتعد عن الفكر الاعتزالي ونهج منهجا عقليا وسطا بين مذهب السلف ، وبين المعتزلة ، ثم كان في نهاية

فقال ابن حزم [32]: " ذهبت جميع أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة ... إلي أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلاً معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة " [33]

والحقيقة أن الاتفاق بين علماء الكلام في العصمة إنما في الكبيرة قبل البعثة ، أو بعدها ؛ لكنهم اختلفوا في عصمة الأنبياء في الصغائر، فهناك من جوز وقوع الصغائر من الأنبياء من الأشاعرة من أهل السنة حيث يقول الغزالي[34] في الاقتصاد في الاعتقاد : " فإن عصمة الأنبياء

حياته أن وافق كل ما يقول عليه السلف حيث ألف كتاب الإبانة في أصول الديانة بين فيه اعتقاده الذي مات عليه ، وقابل به ربه ، ولا يخالف مذهب السلف في شيء والمنتسبون إليه هم أتباعه في طوره الثاني الذي نهجه للرد على المعتزلة ، حيث يخالفون عقيدة السلف في بعض المسائل ، لكنهم لم يخرجوا عن أهل السنة لأنهم يتبعون النصوص ولا يحاولون إغفالها أو تحريفها كما فعل المعتزلة .

انظر : المنقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال لأبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ت (748 هـ) تحقيق : محب الدين الخطيب وكالة الطباعة والترجمة الرياض الطبعة الثالثة 1413 هـ ، 1993 م . ص46 .

[31]) المعتزلة : هم فرقة من أكثر الفرق الإسلامية أتباعا إبان ظهورها انقسمت إلى عشرين فرقة يتفقون في بعض أصولهم الخمسة وهي : التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويختلفون فيما بينهم في بيان هذه الأصول وتقسيماتها . أهم هذه الفرق وأقدمها ظهورا هي الواصلية التي تنسب إلى واصل بن عطاء وهي بداية ظهور المعتزلة عموما ثم بدأ انقسامهم وتكوينهم باقي الفرق ، وسبب ظهورهم أن واصل قال بمنزلة صاحب الكبيرة بين منزلة الكافر ، ومنزلة المؤمن فيكون بذلك فاسق مخلد في النار وخالف بذلك إجماع صحابة الأمة في كون صاحب الكبيرة مادام قد مات على التوحيد فيلجأ في أمره لله إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه بجانب كونه غير مخلد في النار فقد تصيبه شفاعة الشافعين التي ينكرها المعتزلة ويرفضون أن تكون لأصحاب الكبائر . وكان قوله هذا في مجلس شيخه الحسن البصري فرفض شيخه هذا القول فاعتزل واصل مجلسه إلى سارية من سواري مسجد البصرة فقال الحسن البصري اعتزلنا واصل فسمي أصحابه المعتزلة ، وهو أقدم اسم لهم لذلك أطلق على جميع فرقهم .

انظر:الملل والنحل لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ت (429 هـ) حققه وعلق عليه د/ ألبير نصري نادر دار المشرق بيروت لبنان ط 1986 م ص82 : 85 .

[1]) ابن حزم هو : الإمام، البحر، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد، علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير الظاهري، صاحب التصانيف، ولد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاث مئة . نشأ في تنعم ورفاهية، ورزق ذكاء مفرطا، وذهنا سيالا، وكان والده من كبراء أهل قرطبة، توفي في صفر سنة ستين وأربع مئة .

انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء للذهبي ج18 / 184 : 212 ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ج3 / 325 : 330 .

[2]) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري ج4 / 6 .

[34]) هو الإمام : محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي ، جامع أشتات العلوم المنقول منها والمفهوم . ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة . قرأ الغزالي رضي الله عنه في صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، لبس الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشرابه ، ثم أخذ يصنف في كتابه الإحياء ، مدحه أهل عصره لعلمه فقالوا : هو الشافعي الثاني توفي سنة خمسمائة وخمسة من الهجرة وعده العلماء مجدد القرن الخامس الهجري بلا منازع .

عن الكبائر إنما عرفت شرعاً، وعن الصغائر مختلف فيها " [35] وممن جوز وقوع الصغائر من الأنبياء من أهل السنة ابن جرير الطبري [36]. كذلك يقول ابن تيمية [37]: إن عصمة الأنبياء من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف ، وهو قول أكثر الأشعرية ، بل وأكثر قول أهل الحديث والتفسير والفقه ، بل ما نقل عن الصحابة والتابعين يؤيد ذلك القول[38] ، والمعتزلة أيضا يمنعون وقوع النبي في الكبيرة سواء قبل البعثة أو بعدها عصمة من الله وذلك ؛ لأن الكبائر قبل البعثة معظمة للتنفير في حق النبي فلا يجوز ذلك في حقه ، أما الصغائر التي من حظها تقليل الثواب دون التنفير ، فإنها مجوزة على الأنبياء ؛ لأن قلة الثواب لا يقدح في صدق الرسل [39] وسبب ظهور الخلاف حول عصمة الأنبياء في الصغائر فهم ذلك من بعض الآيات القرآنية التي قصت وقوع بعض الأنبياء في الزلل تصدى لتأويلها وتوضيح ما جاء بها من معنى يبعد الأنبياء عن تعمد المعصية سواء في الصغيرة أو الكبيرة مما يدخلهم جميعا في باب العصمة الكاملة كثير من علماء أهل السنة .[40] ونذكر من ذلك مثالا على ما جاء لتنزيه الأنبياء عن الوقوع في الزلل صغيرة كانت أو كبيرة وهو ما جاء عن تبرئة يوسف عليه

أنظر ترجمته في مقدمة إحياء علوم الدين ج1 / 5 : 8

[4]) الاقتصاد في الاعتقاد مرجع سابق ص229 ، 230 .

[5]) انظر تفسير ابن جرير الطبري ج7 / 181 : 185 تجويزه لوقوع الهم من يوسف بجماع امرأة العزيز وشروعه في ذلك ولولا فضل الله عليه لوقع في المعصية . و الطبري هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، الإمام الجليل، المجتهد صاحب التصانيف المشهورة، وهو من أهل آمل طبرستان، ولد بها سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة، ورحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فسمع بمصر والشام والعراق، ثمّ ألقي عصاه واستقر ببغداد وبقي بها إلى أن مات، كان أحد الأئمة يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه؛ لمعرفته وفضله. جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظًا لكتاب الله بصيرًا بالمعاني فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنة وطرقها صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين بصيرًا بأيام الناس وأخبارهم، تُوُفِّيَ سنة عشرة وثلاثمائة من الهجرة .

انظر ترجمته في: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ج2/ 548 : 556 ؛ تذكرة الحفاظ للذهبي، ج2/ 710 : 716؛ طبقات الحفاظ للسيوطي، ص 310، 311.

[37]) هو : شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني ولد في عاشر ربيع الأول يوم الاثنين سنة إحدى وستين وستمائة بحران. سمع من ابن عبد الدايم، وابن أبي اليسر، وعدة. وبرع في التفسير، والحديث، والاختلاف، وكان يتوقد ذكاءً، ومصنفاته أكثر من مائتي مجلد. وله مسائل غريبة نيل من عرضه لأجلها. وكان رأساً في الكرم والشجاعة، قانعاً باليسير، مات في قلعة دمشق ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة لسنة ثمان وعشرين وسبعمائة معتقلاً. ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر من الدواة والورق. شيعه نحو من خمسين ألفاً، وحمل على الرؤوس رحمه الله.

انظر ترجمته في : العبر في خبر من غبر للذهبي ج4/ 84 .

[7]) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية المجلد الرابع (مفصل الاعتقاد) ص195 .

[1]) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 388 .

[2]) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج4 / 9 : 60 .

السلام قال ابن العربي[41] في كتابه أحكام القرآن : " آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا " [42] : الْحُكْمُ هُوَ الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ ...وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ إنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْبُلُوغِ ، وَمَا قَبْلَهُ فِي زَمَانِ عَدَمِ التَّكْلِيفِ فَإِنَّهُ فِيهِ مَعْدُومٌ إلَّا فِي النَّادِرِ .قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا : " وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا " [43]. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : قِيلَ لَهُ ، وَهُوَ صَغِيرٌ : أَلَا تَذْهَبُ تَلْعَبُ ؟ قَالَ : مَا خُلِقْت لِلَّعِبِ .

وَهَذَا إنَّمَا بَيَّنَ اللَّهُ بِهِ حَالَ يُوسُفَ مِنْ حِينِ بُلُوغِهِ بِأَنَّهُ آتَاهُ الْعِلْمَ ، وَآتَاهُ الْعَمَلَ بِمَا عَلِمَ ؛وَخَبَرُ اللَّهِ صَادِقٌ ، وَوَصْفُهُ صَحِيحٌ ، وَكَلَامُهُ حَقٌّ ، فَقَدْ عَمِلَ يُوسُفُ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا وَتَحْرِيمِ خِيَانَةِ السَّيِّدِ أَوْ الْجَارِ أَوْ الْأَجْنَبِيِّ فِي أَهْلِهِ ، فَمَا تَعَرَّضَ لِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، وَلَا أَنَابَ إلَى الْمُرَاوَدَةِ [بِحُكْمِ الْمُرَاوَدَةِ] ؛ بَلْ أَدْبَرَ عَنْهَا ، وَفَرَّ مِنْهَا ؛ حِكْمَةٌ خُصَّ بِهَا ، وَعَمَلًا بِمُقْتَضَى مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ؛ وَهَذَا يَطْمِسُ وُجُوهَ الْجَهَلَةِ مِنْ النَّاسِ وَالْغَفَلَةِ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي نِسْبَتِهِمْ إلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَأَقَلُّ مَا اقْتَحَمُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ هَتَكَ السَّرَاوِيلَ ، وَهَمَّ بِالْفَتْكِ فِيمَا رَأَوْهُ مِنْ تَأْوِيلِ ، وَحَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْت عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، بَلْ أُبَرِّئُهُ مِمَّا بَرَّأَهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا " ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الَّذِينَ اسْتَخْلَصْنَاهُمْ . وَالْفَحْشَاءُ هِيَ الزِّنَا وَالسُّوءُ هُوَ الْمُرَاوَدَةُ وَالْمُغَازَلَةُ ، فَمَا أَلَمَّ بِشَيْءٍ وَلَا أَتَى بِفَاحِشَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ اللَّهُ : " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا " [44] .قُلْنَا : إنَّ اللَّهَ ــ سُبْحَانَهُ ــ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى فِي جَانِبِ الْقِصَّةِ فِعْلًا بِجَارِحَةٍ ، وَإِنَّمَا الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْهَمُّ ، وَهُوَ فِعْلُ الْقَلْبِ ،...

---

[3]) هو : محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي: قاض، من حفاظ الحديث.ولد في إشبيلية سنة 368 من الهجرة ، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين.وصنف كتبا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ.

وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها سنة 453 من الهجرة ومن مصنفاته : أحكام القرآن والقبس في شرح موطأ ابن أنس ، والناسخ والمنسوخ ، والمسالك على موطأ مالك .

انظر ترجمته في :طبقات الحفاظ للذهبي ج4/ 1294 : 1298 ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ج4 / 296 : 298 .

[4]) سورة يوسف من الآية (22) .

[5]) سورة مريم من الآية (12) .

[6]) سورة يوسف من الآية (24) .

فإنَّ فَائِدَةَ قَوْلِهِ : " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا " أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ إِيَّانَ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ لِتَكُونَ لَهُ سَبَبًا لِلْعِصْمَةِ "[45]

هذا ما قاله ابن العربي في تبرئة يوسف ــ عليه السلام ــ مما نسب إليه رواية عن ابن عباس : أنه أخذ منها موضع الرجل من المرأة في الجماع [46]، ويجوز أن ما قاله ابن عباس رواية عن أهل الكتاب ؛ لأن الصحابة كانوا يحدثون عن أهل الكتاب فيما لم يأت فيه خبر من كتابنا ، أو من خبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك يجوز أن يكون هذا التأويل مما نسب لابن عباس زورا وبهتانا . ولقد خطأ ابن جرير الطبري من قال : بأن يوسف هم بضربها ، أو من قال : إن يوسف لم يهم بها أصلا تأخيرا لجواب لولا وعلى هذا يكون المعنى : لولا أن رأى برهان ربه لكان هم بها ؛ لأن ذلك غير جائز في العربية . وتابع ابن كثير ابن جرير في تخطئة الرأي الثاني ، وأجاز الأول ، ولم يرو شيئا مما رواه ابن جرير عن ابن عباس ، ومجاهد تورعا عن هذا القول في حق النبي يوسف ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، واختياره لعصمة الأنبياء . [47]

والحقيقة أن الهم وقع من يوسف وذلك بشهادة القرآن ؛ لكن ما هو معنى " الهم " في العربية ؟

" ومعنى"الهم بالشيء" ، في كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقعته ، ما لم يُواقِع "[48] فالهم هو حديث المرء نفسه بالمواقعة ومراد النفس في الإقدام على ذلك . ولم يقع من يوسف أكثر من هذا ، وله شواهد من السورة نفسها .

أولا : قوله تعالى : " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " [49]

والحكم كما قال ابن العربي : " العمل بالعلم " فالله أعطاه العمل بالعلم والقيام به ، وأعطاه العلم الذي سوف يعمل به ، ويجوز أن يكون العلم الذي أعطاه الله ليوسف غير تأويله للرؤى هو علم النبوة ، وتعلم شريعة أبيه يعقوب ، وجده إسحاق ، وجد أبيه إبراهيم ــ عليهم وعلى نبينا أفضل

---

[7]) أحكام القرآن لابن العربي راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان ج3 / 46:47 .

[1]) انظر تفسير ابن جرير الطبري ج7 / 181 ، 182 .

[2]) انظر تفسير ابن كثير ج2 / 475 ، 476 .

[3]) تفسير ابن جرير الطبري ج7/ 181 .

[4]) سورة يوسف الآية (22) .

الصلاة والسلام ــ فكيف يجوز بعد أن يعطيه الله العلم ، والعمل به ، ويعرفه بالشرائع ، ثم يمنعه حفظه ــ سبحانه ــ فهذا دليل على وجود الحفظ من الله ليوسف ، وعدم زيادة يوسف عن محادثته لنفسه بما وضع فيها من شهوة بشرية ؛ لأن عصمة الأنبياء لا تخرجهم من بشريتهم المتحقق فيها الشهوة . فعمله بعلمه نهاه عن الوقوع في المعصية بعد حديث نفسه له بالمباشرة دون مقدمات أخرى للمعصية . مع العلم من سياق الآيات وترتيبها كما جاءت في محكم التنزيل أن العمل والعلم وجدا في يوسف قبل الهم ، فكان ذلك نافيا لوقوعه في بدايات المعصية .

ثانيا : قوله تعالى : " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " [50]

وما زلنا مع سياق الآيات وما ورد من ترتيبها فبعد أن أعطاه الله الحكم والعلم راودته امرأة العزيز عن نفسها ، وبدأت تغازله وتظهر ما به من محاسن ، وجمال حتى وصل بها المقام أن غلقت أبواب القصر الذي هما به ، ودعته للوقاع صراحة بقولها " هيت لك " أي : إني هيئت لك نفسي فهلم إلي ، وهذا مقام المعصية التي صدرت من امرأة العزيز أما ما صدر من يوسف ــ عليه السلام ــ فكان مقام العصمة كما نص بذلك الكتاب الحكيم فقال لها : أستعيذ بالله وأستجير وأعتصم به مما تدعونني إليه من فعل الفاحشة [51]، وهو ما يدل دلالة قاطعة على امتناع يوسف عن الإقدام على فعل المعصية أصلا وهو تبرئة له مما نسب إليه من أنه أخذ منها موضع الرجل من المرأة ساعة الجماع . كذلك معرفته بحق سيده عليه تجاه زوجته وعدم خيانته فيها دليل آخر على عدم عزم يوسف عن الوقوع في المعصية . وإلى هنا ينتهي ما وقع من يوسف أمام امرأة العزيز من تصرفات ظاهرية فكل ما ظهر منه تجاهها إعراضه عنها بالكلية

ولذلك كان منه الفرار منها حتى لا يترك نفسه لتأثيرها أكثر من ذلك .

---

[1]) سورة يوسف الآية (23) .

[2]) انظر تفسير ابن جرير الطبري ج7 / 176 : 180 .

ثالثا : قوله تعالى : " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " [52]

لما انتهى العزيز الحكيم من تقرير ما حدث من امرأة العزيز في الظاهر الذي تحقق منها بالفعل من مراودة ليوسف ، ومغازلة ، وتغليق لأبواب القصر ، وعرض نفسها عليه صراحة ، وما حدث من يوسف بأنه امتنع عن طلبها واستجار بالله مما تريد ، وذكرها بحق زوجها عليه وعليها ، وأن الظالمين لن ينجحوا ولن يفلحوا أبدا ، وهو ما انتهى به إلى الفرار منها . ذكر الله عز وجل ما دار في الخواطر من امرأة العزيز ، ويوسف

وهو الهم وخواطر امرأة العزيز ترجمتها إلى أفعال من المراودة والمغازلة وطلب الوقاع ، أما يوسف فخواطره استطاع أن يكبحها ، وأن يسيطر عليها وهو ما أعانه عليه برهان الله له فهذا الفرق بين النبي المعصوم ، والمتحقق في يوسف ، والعبد الواقع في المعاصي والذنوب الذي لا يقدر أن يكبح جماح نفسه

والمتحقق في امرأة العزيز في هذه القصة . كذلك فإن قوله تعالى: **" وأوحينا إليه "** [53] يدل على أنه كان نبيا ، وهو قول جماعة من العلماء، وإذا كان نبيا فلم يبق إلا أن يكون الهم الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه " [54] فبهذا يثبت أن " الهم " الذي حدث من يوسف كان هذا الخاطر الذي هتفت به نفسه الداعية إلى المعصية ، وهي صفة النفس البشرية مطلقا ثم حفظه الله من هذا الهم بأن أراه البرهان ؛ لكي يبعده به عن المعصية

وأيا ما كان البرهان على اختلاف بين المفسرين إلا أنه برهان الله ، وهذا دليل رابع على عصمته ــ عليه السلام ــ ، وسلامته من التهيؤ للمعصية كما حكي عن بعض المفسرين ، ومن ثم تم صرف السوء عنه

---

[3]) سورة يوسف الآية (24) .

[4]) سورة يوسف من الآية (15) .

[1]) تفسير القرطبي ج11 / 314 .

" والسوء : الشهوة، والفحشاء المباشرة.وقيل: السوء الثناء القبيح، والفحشاء الزنا.وقيل: السوء خيانة صاحبه، والفحشاء ركوب الفاحشة." [55] وعلى هذا فالله صرف عن يوسف الشهوة والوقوع في المعصية بعصمته له وبما أراه من برهانه ــ سبحانه وتعالى ــ . والأدلة على براءة يوسف مما نسبه إليه المفسرون كثيرة من السورة نفسها نذكر منها قوله تعالى :"وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ " [56] وقوله تعالى : " قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ "[57]وقوله تعالى : " قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ *ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ *وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ "[58]

وكل هذه الآيات في مجملها وتفصيلها دالة على براءة يوسف من الهم في المعصية هما معنويا ، وإنما جاء الهم من خواطر نفسه ، ومن الحديث بها ، ثم سرعان ما انتفى هذا الحال عنه وتماسك أمام امرأة العزيز وأخذ يمتنع عنها بكل ما أوتي من قوة إيمانية حتى أخذت امرأة العزيز تلاحقه ففر منها هاربا ، وهو ما عبر عنه الله عز وجل بقوله " وَاسْتَبَقَا الْبَابَ " ثم جاء دليل التماسك الذي دب في يوسف عن الوقوع في المعصية من قول امرأة العزيز للنسوة : " وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ " [59]

" واستعصم أي : امتنع ، وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: " استعصم " أي استعصى " [60] ولا شك أن هذا دليل واضح على تماسك يوسف وامتناعه عن الوقوع في المعصية ، وتأتي قوة هذا الدليل ؛ لأنه من كلام امرأة العزيز التي اتهمته قبل ذلك وفيه اعتراف على نفسها بالمراودة ليوسف .

المطلب الثالث : آراء ابن كثير في عصمة الأنبياء :

---

[2]) تفسير القرطبي ج11 / 318 .
[3]) سورة يوسف من الآية (25) .
[4]) سورة يوسف من الآية (28) .
[5]) سورة يوسف الآيات (51 : 53) .
[6]) سورة يوسف من الآية (31) .
[7]) تفسير القرطبي ج9 / 338 .

يظهر مما جاء في تفسير ابن كثير حول عصمة الأنبياء أن ابن كثير يتورع في نسبة المعاصي للأنبياء ، ويقول بعصمتهم في الكبيرة ، والصغيرة وظهر ذلك مما قال في تفسير قوله تعالى : "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [61]

قال ابن كثير ينزه إبراهيم ــ عليه السلام ــ من الوقوع في الشرك بإرادته عبادة غير الله ، أو عدم اهتدائه لوحدانية الله ــ سبحانه ــ : " وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلا بقوله: " لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ " [62].... والحق أن إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع " قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا

---

[1]) سورة الأنعام الآيات (74 : 79) .

[2]) انظر تفسير ابن جرير ج5 / 245 ، 246 .

تنظرون، " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ " [63]وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ " [64] ، وقال تعالى : " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [65] ، وقال تعالى: " قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [66] . وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كل مولود يولد على الفطرة" [67] وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء" [68] وقال الله في كتابه العزيز: " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ " [69] ، وقال تعالى: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

---

[1]) سورة الأعراف الآية (54) .

[2]) سورة الأنبياء الآيتان (51 ، 52) .

[3]) سورة النحل الآيات (120 : 123) .

[4]) سورة الأنعام الآية (161) .

[5]) الحديث صحيح متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين ج1 / 319 ، وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ج16 /156 .

[6]) صحيح أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ج18/ 323 : 325 . ولفظ الحديث : " عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَادٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ .... " وفيه غواية الشياطين لبني آدم وتحولهم من الوحدانية إلى الشرك ، ذلك لمن اتبع الشياطين ولم يتبع دعوة الأنبياء للوحدانية والله أعلم .

[7]) سورة الروم من الآية (30) .

أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى " [70] ومعناه على أحد القولين، كقوله: " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا " .

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل -الذي جعله الله " أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " ناظرا في هذا المقام ؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظر قوله تعالى : " وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ."[71]

وما قال به ابن كثير يدل على تدليله لعصمة الأنبياء ، فقد اتهم قوم من المفسرين إبراهيم ــ عليه السلام ــ بأنه لم يهتد إلى الوحدانية مباشرة ؛ وإنما أخذ يتدرج في النظر إلى إلهية الكواكب ، ثم القمر ، ثم الشمس ثم أفسد ذلك حينما هداه الله عز وجل للتوحيد ، ومنهم ابن جرير الطبري [72] ، و هذا لا يجوز في حق إبراهيم الخليل ــ عليه السلام . وكما ذكر ابن كثير ؛ فإنه ذكر هذا لقومه من طريق الاستدلال بالحجة والدليل على بطلان عبادتهم لهذه المخلوقات من دون الله . فكأن إبراهيم ــ عليه السلام أراد أن يبين لقومه فساد عقيدتهم فأربابهم تغيب عن العيون ، وتتغير ويحل مكانها غيرها ، وهذا غير جائز في حق الله ــ سبحانه ــ ، فإنه لا يغيب ، ولا يتغير ، ولا يتبدل ، ولا يحل مكانه غيره . ويدل على ذلك أنه بعدما انتهى من استدلاله لهم بدأ يقرر حقيقة الرب المعبود ، فتبرأ مما يعبدون أولا فقال : " قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " أي برئ من هذه المعبودات التي تشركونها في العبادة مع رب الأرباب ، وخالق الأرض والسماء . ثم أقر بعبوديته لله فقال : " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " وما ذكره ابن كثير من ثبات عقيدة إبراهيم في الوحدانية ونفي الشرك عنه لا يحتاج إلى المزيد . وقال ابن العربي عن عصمة إبراهيم ــ عليه السلام ــ : " وَالَّذِي أُوتِيَه إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِلْمِ بِالْحُجَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي تُذْكَرُ لِلْخَصْمِ عَلَى طَرِيقِ

---

[8]) سورة الأعراف من الآية (72) .

[1]) تفسير ابن كثير ج2/ 151 ، 152 ، والآيتان سورة الأنعام الآيتان (80 ، 81) .

[2]) انظر تفسير ابن جرير الطبري ج5 / 244 : 247 .

الْمُقَابَلَةِ كَانَ فِي الدُّنْيَا بِظُهُورِ دَلَالَةِ التَّوْحِيدِ وَبَيَانِ عِصْمَةِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ الْجَهْلِ بِاَللَّهِ تَعَالَى ، وَالشَّكِّ فِيهِ ، وَالْإِخْبَارِ أَنَّ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ إِنَّمَا كَانَ احْتِجَاجًا ، وَلَمْ يَكُنْ اعْتِقَادًا . " [73]

فهذا ما يدل على عصمته ــ عليه السلام ، وسلامته من الشرك ولو طرفة عين . كذلك شهادة القرآن له بأن ما كان فيه إنما كان مقام محاجة لقومه ، وإفسادا لعقيدتهم بإظهاره إتباعهم ثم بيان وجه فساد هذا الإتباع وهو ما قاله الله بعد انتهاء إبراهيم من المحاجة ، أنه وجه وجهه لله يعبده وحده ، ولا يعبد شيئا سواه وذلك لقوله تعالى : " **وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّـهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ** " أي بعدما أظهر فساد عقيدتهم فيما يعبدون أرادوا أن يردوا عليه قوله ؛ فقال كيف تردون علي قولي ، وقد هداني الله له .

ولقد اتفق الرازي[74] مع ابن كثير حيث قرر عصمة سيدنا إبراهيم بأن هذا المقام مقام مناظرة حيث قال في تفسيره : " إن إبراهيم ــ عليه السلام ــ ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة. فالمقام الأول : في هذا الباب مناظراته مع أبيه حيث قال له : " **يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً** "[75]

والمقام الثاني : مناظرته مع قومه وهو قوله : " **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ**" [76]

والمقام الثالث : مناظرته مع ملك زمانه ، فقال : " **رَبِّيَ الذي يحي وَيُمِيتُ** " [77] .

والمقام الرابع : مناظرته مع الكفار بالفعل ، وهو قوله تعالى : " **فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَّهُمْ** " [78] ثم إن القوم قالوا : " **حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ** " [79] ثم إنه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل

---

[3]) أحكام القرآن لابن العربي ج2 / 262 .

[74]) هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين البكري الطبرستاني الرازي, الملقب بفخر الدين الشافعي, ولد سنة 544 هـ. جمع الإمام الرازي كثيرًا من العلوم, فكان إمامًا في التفسير, والكلام, والعلوم العقلية, وعلوم اللغة, فقصده العلماء من جميع الأقطار, أخذ العلم عن والده, وعن الكمال السمعاني, وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم. لـه مؤلفات كثيرة, منها: تفسيره مفاتيح الغيب, والبيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان, ومنها المحصول, وهو كتاب في أصول الفقه, تُوُفِّيَ سنة ست وستمائة للهجرة.

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان, ج4/ 248 : 252 ؛ وشذرات الذهب, ج7/ 40 : 42 .

[2]) سورة مريم الآية (42).

[3]) سورة الأنعام من الآية (76).

[4]) سورة البقرة من الآية (258) .

[5]) سورة الأنبياء من الآية (58) .

ولده فقال : " إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ " [80] فعند هذا ثبت أن إبراهيم عليه السلام كان من الفتيان ، لأنه سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان ، ثم إنه عليه السلام سأل ربه فقال : " وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين " [81]فوجب في كرم الله تعالى أنه يجيب دعاءه ويحقق مطلوبه في هذا السؤال ، فلا جرم أجاب دعاءه ، وقبل نداءه وجعله مقبولاً لجميع الفرق والطوائف إلى قيام القيامة ، ولما كان العرب معترفين بفضله لا جرم جعل الله تعالى مناظرته مع قومه حجة على مشركي العرب.[82] وهذا يدل على فضل سيدنا إبراهيم وبعده عما نسب إليه . والرازي يظهر حججا كثيرة تدل على فضل سيدنا إبراهيم وبراءته من الشرك . وكذلك لم يختلف ابن كثير عن الزمخشري[83] والرازي فيما قرراه من كون سيدنا إبراهيم كان مناظرا لقومه في هذه المسألة .[84]وعلى هذا تتحقق عصمته ــ عليه السلام ــ .

وكذلك يبين تأييد ابن كثير لعصمة الأنبياء في الصغائر والكبائر ما قاله فيما جاء عن هم يوسف حيث قال: " المراد بهمه بها هَمّ خَطَرات حديث النفس. حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي هاهنا حديثاً عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى: إذا هَمّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جَرّائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها" [85]. ولم يذكر ابن كثير روايات ابن جرير عن ابن عباس وغيره التي تفضي

---

[6]) سورة الأنبياء من الآية (68) .

[7]) سورة الصافات من الآية (102) .

[8]) سورة الشعراء الآية (84) .

[9]) تفسير الرازي ج14/ 36 ، 37 .

[83]) هو : أبو القاسم الزمخشريّ محمود بن عمر الخوارزميّ النحويّ اللغويّ المفسّر المعتزليّ، صاحب " الكشّاف " و " المفصّل " . عاش إحدى وسبعين سنة. ولد سنة أربعمائة وسبع وستين من الهجرة . سمع ببغداد من ابن البطر، وصنف عدة تصانيف. وسقطت رجله فكان يمشي في جاون خشب. وكان داعيةً إلى الاعتزال كثير الفضائل. توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة .

انظر ترجمته في العبر في خبر من غبر للذهبي ج2 / 455 .

[1]) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج2/ 366 ، 367 .

[1]) تفسير ابن كثير ج2 / 475 ، والحديث صحيح متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد باب " يريدون أن يبدلوا كلام الله " ج4 / 461 ، ومسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس ج312/2

بأن يوسف أخذ من امرأة العزيز موضع الرجل من المرأة ساعة الوقاع ، وأنه فك السراويل وأقبل ليتجرد من ثيابه ، وكل هذا من كتب أهل الكتاب والله وأعلم . وهذا قول منه بعصمة الأنبياء عن الصغائر وتحقق العصمة في يوسف بعدم وقوع ذلك منه إطلاقا . وذكره للحديث السابق يدلل أن ما هم به يوسف إنما كتب له به حسنة ؛ لأنه لم يفعل المعصية .

كذلك ما قاله تبرئة لداود من الخطأ الذي وقع فيه أثناء حكمه[86] : " أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مُؤيَّدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف "[87]

عصمة النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما جاء عنها في تفسير ابن كثير :

أكد ابن كثير عصمة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقد تجنب الحديث فيما عاتبه الله به في كتابه في مواضع كثيرة ومن ذلك قوله تعالى : " **وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** " [88]

فلم يقل إلا ما قاله ابن عباس : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول " [89]

والحقيقة أن ما في هذه الآية إنما هوعتاب للنبي ؛ لكثرة إشفاقه على الكفار من عدم إيمانهم ، وليس فيه شبهة للمعصية كما وهم بعض المفسرين والتي تظهر من قوله تعالى : " **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** " فنهي النبي أن يكون من الجاهلين لا يستوجب أنه مقدم على جهل ، وإنما هو عتاب فيه تشديد على الحبيب المحبوب كما قال الرازي : " **فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين** " نهي له عن هذه الحالة ، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة كما أن قوله " **وَلاَ تُطِعِ**

ونص الحديث بلفظ رواية مسلم" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا " .

[2]) انظر تفسير ابن كثير ج3 / 187 ، 188 .

[3]) تفسير ابن كثير ج3 / 187 .

[4]) سورة الأنعام الآية (35) .

[5]) تفسير ابن كثير ج2 / 131 ، و انظر ج2 / 130 ، 131 من تفسيره ليتضح الأمر .

الكافرين والمنافقين "[90] لا يدل على أنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أطاعهم وقبل دينهم ، والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم ، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل ، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة . "[91] وكذلك أقر الزمخشري عصمة النبي من خلال هذه الآية بعدم وقوعه في الجهل.[92] وذلك يدل على اتفاق هؤلاء المفسرين حول تفسير هذه الآية ، محاولة منهم لبيان عصمة النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

وكذلك أمسك عن الحديث في تفسيره لقوله تعالى : " **وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** " [93]

واكتفى بذكر سبب النزول [94] ولم يتحدث عما وجه للنبي في هذه الآية من قبل من قدح في عصمته ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من العلماء . لكن الرازي تحدث عن ذلك وجاء باتهامات القادحين في عصمته ، ثم أخذ يرد على ذلك فقال : " احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ بهذه الآية من وجوه : الأول : أنه ـــ عليه السلام ـــ طردهم والله تعالى نهاه عن ذلك الطرد ، فكان ذلك الطرد ذنباً . والثاني : أنه تعالى قال : " **فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين** " وقد ثبت أنه طردهم ، فيلزم أن يقال : إنه كان من الظالمين . والثالث : أنه تعالى حكى عن نوح ـــ عليه السلام ـــ أنه قال : " **وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ** " [95] ثم إنه تعالى أمر محمداً ـــ عليه السلام ـــ بمتابعة الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ في جميع الأعمال الحسنة ، حيث قال : " **أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده** " [96] فبهذا الطريق وجب على محمد ـــ عليه السلام ـــ أن لا يطردهم ، فلما طردهم كان ذلك ذنباً . والرابع : أنه تعالى ذكر هذه الآية في سورة الكهف ، فزاد فيها فقال : " **تُرِيدُ زِينَةَ الحياة** " [97] ثم إنه تعالى نهاه عن الالتفات إلى زينة الحياة الدنيا في آية أخرى فقال " **وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ**

---

[1]) سورة الأحزاب من الآية (48) .
[2]) تفسير الرازي ج12 / 218 ، 219 .
[3]) انظر تفسر الكشاف للزمخشري ج2/ 341 .
[4]) سورة الأنعام الآية (52) .
[5]) انظر تفسير ابن كثير ج2 / 135 ، 136 .
[6]) سورة هود من الآية (29) .
[7]) سورة الأنعام من الآية (90) .
[8]) سورة الكهف من الآية (28) .

الحياة الدنيا " [98] فلما نهى عن الالتفات إلى زينة الدنيا ، ثم ذكر في تلك الآية أنه يريد زينة الحياة الدنيا كان ذلك ذنباً ....

والجواب عن الأول : أنه ــ عليه السلام ــ ما طردهم لأجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما عين لجلوسهم وقتاً معيناً سوى الوقت الذي كان يحضر فيه أكابر قريش فكان غرضه منه التلطف في إدخالهم في الإسلام ولعلّه ــ عليه السلام ــ كان يقول هؤلاء الفقراء من المسلمين لا يفوتهم بسبب هذه المعاملة أمر مهم في الدنيا وفي الدين ، وهؤلاء الكفار فإنه يفوتهم الدين والإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى فأقصى ما يقال إن هذا الاجتهاد وقع خطأ إلا أن الخطأ في الاجتهاد مغفور . وأما قوله ثانياً : إن طردهم يوجب كونه ــ عليه السلام ــ من الظالمين . فجوابه : أن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه ، والمعنى أن أولئك الضعفاء الفقراء كانوا يستحقون التعظيم من الرسول ــ عليه السلام ــ فإذا طردهم عن ذلك المجلس كان ذلك ظلما ، إلا أنه من باب ترك الأولى والأفضل لا من باب ترك الواجبات وكذا الجواب عن سائر الوجوه فإنا نحمل كل هذه الوجوه على ترك الأفضل والأكمل والأولى والأحرى "[99] فهذا كان رد الرازي على من اتهم النبي في هذه الآية بوقوعه في المعصية قدحا في عصمته ــ عليه السلام ــ ولعل سكوت ابن كثير عن الكلام في ذلك تورعا فهو إن أخذ برأي القادحين تجرأ على النبي ، وخاف أن يدفع الشبه عن النبي في هذا فيقع في صرف القرآن عن موضعه فاختار السكوت ، والأفضل له أن يدلل على صحة رأيه الذي اختاره على طول تفسيره وهو نصرته لعصمة الأنبياء ، أما الزمخشري فلا يتحدث عن عصمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا يذكر وقوعه في الخطأ مباشرة وقام بذكر سبب نزول الآية [100] إلا أنه قال في آخر تفسيرها : " **فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** " جواب نهي ، ويجوز أن يكون عطفا على " **فَتَطْرُدَهُمْ** " على وجه التسبيب ؛ لأنه كونه ظالما مسبب عن طردهم ." [101] وبهذه المقولة يوجه الظلم للنبي في هذه الواقعة مما يجعله نافيا لعصمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبهذا يخالف ابن كثير والرازي في هذه النقطة وينضم لمن نسب الزلل للنبي ــ صلى الله عليه وسلم .

ويظهر تورع ابن كثير عن ذكر أمور فيها إساءة للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما جاء في تفسير قوله تعالى : " **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ**

---

[9]) سورة طه من الآية (131) .

[1]) تفسير الرازي ج12 / 246 ، 247 .

[2]) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج2/ 349 : 352 .

[3]) تفسير الكشاف ج2/ 352 .

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا " [102]

قال في ثنايا تفسيره لهذه الآية : " ذكر ابن جرير [103] هاهنا آثارًا عن بعض السلف، رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحًا لعدم صحتها فلا نوردها. " [104] والحق أن في رأي ابن جرير ، وما أتى به من روايات مكذوبة على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ تجرؤ على مكانة النبي صلى الله عليه وسلم ونسب ما لم يصدر عنه إليه جهلا وخطأ .

وهو أن النبي رأى زينب بنت جحش في حجرتها عند زيد بن ثابت فأعجبته فتمنى لو تركها زيد فتزوجها هو [105]، وهذا لا يجوز أن يقع من النبي على أي حال . وهو ما قالوه في تفسير قوله تعالى : " وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ "

والصحيح ما قاله المفسرون ومنهم ابن كثير [106] أن الله أعلم نبيه أنه سوف يتزوج زينب بنت جحش بعد أن يطلقها زيد ، وهي امرأة ابنه بالتبني وقتئذ حيث إن النبي كان قد تبنى زيد بن حارثة . وكان يدعى زيد بن محمد ومعلوم أن امرأة الابن الصلب محرمة على الأب ، فأراد الله أن يبطل قضية التبني في الإسلام فأمر النبي أن يتزوج زينب بعد طلاقها من زيد حتى تبطل هذه القضية ، وهو ما أعلمه الله لنبيه قبل وقوعه ، و كان يخشى النبي من ذلك حديث الناس به ، ورميه بما لا يستحقه . والدليل من الآية نفسها في ذكر علة زواج النبي من زينب وهو قوله تعالى : " لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً "

أما الزمخشري فيقرر ما قرره الرازي من أن النبي نظر إليها فأعجبته ، ووقع في قلبه حبها فتمنى زواجها ، وهذا فيه تجنٍ على النبي كما ذكر آنفا ، وهو في تفسيره لا يقرر ما قرره ابن كثير والقرطبي من عصمة النبي عن ذلك الأمر [107] . وبهذا يظهر مذهب المعتزلة وبعض

---

[4]) سورة الأحزاب (37) .

[5]) انظر تفسير ابن جرير ج 10 / 302 ، 303 .

[6]) تفسير ابن كثير ج3 / 492 .

[1]) انظر تفسير الرازي ج25 / 213 يتابع ابن جرير فيما يرى .

[2]) انظر تفسير ابن كثير ج3 / 492 ، 493 ، وانظر تفسير القرطبي ج17 /155 : 158 ، يحكي القولين ويختار العصمة للنبي في ذلك الأمر وتابع ابن كثير في رأيه ، وتخطئة من قال بالرأي الأول .

[3]) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج5/ 71 : 74 .

الأشاعرة ومنهم الرازي في كون الأنبياء غير معصومين عن الصغائر ، بينما هم منزهون عن ذلك عند ابن كثير وهو يمثل التيار السلفي المعتدل غير المتشدد .

كذلك شهد ابن كثير للنبي بالعصمة في أكثر من موضع فقال في تفسير قوله تعالى :

" وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا "[108] :

" يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه، في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرًا إلى يوم الدين." [109] ولم يذكر أكثر من هذا حول هذه الآية وما يليها بآيتين. وكذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا " [110] قال : " هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. " [111] وهذا دليل من ابن كثير على تحقق العصمة في النبي ، فليس خطاب الله للنبي وأمره له بالتقوى يعني أن النبي تاركا للتقوى ، وإنما هو أمر من الله للأمة في سورة النبي وقد تكرر كثيرا من جنس هذا في القرآن ، علما بأنه لو لم تتحقق التقوى في النبي ففِيمن تتحقق ؟

ولو كان المأمور بالتقوى النبي وحده دون الأمة فيقول الرازي في ذلك " فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له " [112] وكلام الرازي يدل على أن التقوى موجودة متحققة في النبي ؛ لكن الله أمره بتقوى يجدد بها تقواه ، ويرفع بها مقامه فتقواه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليست مثل تقوى غيره من الآحاد وفي كلا الرأيين دليل على عصمة النبي .

وبهذا يظهر أن ابن كثير أحرص من الرازي والزمخشري في تقرير عصمة الأنبياء عن الصغائر ، وإن اتفق الرازي وابن كثير في معظم النقاط ؛ إلا أنه نسب للنبي وقوعه في شيء

---

[4]) سورة الإسراء الآية (73) .
[5]) تفسير ابن كثير ج3 / 54 .
[6]) سورة الأحزاب الآية (1) .
[7]) تفسير ابن كثير ج3 / 466 .
[1]) تفسير الرازي ج25 / 191 .

لا يجوز أن يقع النبي فيه فكان أقل من ابن كثير في تقرير ذلك ، والزمخشري يرى وقوع الأنبياء في الصغائر جائز لا يقلل من عظمتهم وفضلهم .

الخاتمة :

هكذا أسدل الستار عن هذه الدراسة الموجزة والتي تتحدث عن عصمة الأنبياء وما جاء عند ابن كثير المفسر عن ذلك . لذا فهذه الدراسة تعد بمثابة محاولة لربط علم العقيدة بعلم التفسير ، ولا غرو في ذلك والتفسير من أهم العلوم الدينية حيث بني هذا العلم على دستور المسلمين والمعجزة الباقية أبد الدهر لخاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين وهي القرآن الكريم . فعلم التفسير يستمد أهمية وفضله من صلب موضوعه الذي يدور حوله وهو القرآن العظيم . وبعد أن تم الحديث عن مناقب ابن كثير ، ثم عن العصمة في اللغة والاصطلاح ، والعصمة عند علماء الكلام ، وعن آراء ابن كثير في العصمة من خلال تفسيره . توصل البحث للنتائج الآتية :

1 ــ اختلف علماء أهل السنة بين مثبت العصمة للأنبيا في الكبائر قبل البعثة وبعدها ، وبين مثبت لها بعد البعثة فقط . كذلك لم يتفقوا على إثبات العصمة للأنبياء في الصغائر سواء قبل العثة أو بعدها .

2 ــ يرى ابن كثير إثبات العصمة للأنبياء مطلقا ، ولذا تورع عن إيراد الروايات التي تثبت معصية الأنبياء إيمانا منه بدسها أو عدم صحتها .

3 ــ يختلف بعض المفسرين مع ابن كثير في العصمة فمنهم من يرى عدم عصمتهم قبل البعثة مثل ابن جرير الطبري ، ومنهم من يرى عدم عصمتهم عن الصغائر بعد البعثة مثل الرازي والزمخشري . هذا عن أهم النتائج والباحث يوصي في نهاية بحثه بزيادة ربط التفسير بالعقيدة لبحث المسائل العقائدية من كتب التفسير ؛ حتى يظل القرآن الكريم هو المصدر الأول لتقرير هذه المسائل بدلا من الآراء الفلسفية الوافدة قديما وحديثا .

قائمة المصادر والمراجع

1 ــ القرآن الكريم

2 ــ أحكام القرآن لابن العربي راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان

3ــ إحياء علوم الدين للغزالي دار مصر للطباعة 1998

4 ــ الأعلام خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة .

5ــ الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه وقدم له د . إبراهيم آكاه جوبوقجي ، د. حسين آتاي بكلية الإلهيات جامعة أنقرة الطبعة الأولى 1962 مـ

6 ــ تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

7 ــ تذكرة الحفاظ للإمام شمس الدين محمد الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ،ط1 / 1413هـ ــ 1992م .

8 ــ تفسير القرآن العظيم لابن كثير طبعة دار المنار .

9ــ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام الرازي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 1401 ، 1981

10 ــ جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ط1 1411 هـ ــ 1990م .

11 ــ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1427 هـ ، 2006 مـ

12 ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ، دار الجيل بيروت لبنان ط 1414 هـ 1993 مـ .

13 ــ سير أعلام النبلاء تصنيف شمس الدين محمد الذهبي ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ط9 1413 هـ ــ 1993 م

14 ــ شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار دار إحياء التراث العربي .ط1 1422 هـ ، 2001 مـ .

15 ــ صحيح البخاري للإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، داؤ المنار 1422 ــ 2001 م

16ــ صحيح مسلم بشرح النووي للإمام محي الدين أبي زكريا النووي تحقيق صلاح عويضة ، دار الفكر العربي .

17ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ــ لبنان ج1/ 53 .

18 ــ طبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة .

19 ــ العبر في خبر من غبر للذهبي حققه وطبعه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان .

20 ــ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري طبعة دار المنار .

21 ــ الكشاف عن حقائق غوامض وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ــ الرياض ط1 1418 هـ ، 1998 مـ

22 ــ لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف .

23 ــ مجموع الفتاوى لابن تيمية اعتنى به وخرج أحاديثه : عامر الجزار ، أنور الباز ، دار الملل والنحل لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ت (429 هـ) حققه وعلق عليه د/ ألبير نصري نادر دار المشرق بيروت لبنان ط 1986 مـ .

24 ــ المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال لأبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ت (748 هـ) تحقيق : محب الدين الخطيب وكالة الطباعة والترجمة الرياض الطبعة الثالثة 1413 هـ ، 1993 مـ .

25 ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان ، تحقيق د. حسان عباس ، دار الثقافة بيروت ــ لبنان .

*****